د. عبدالبديع عراق

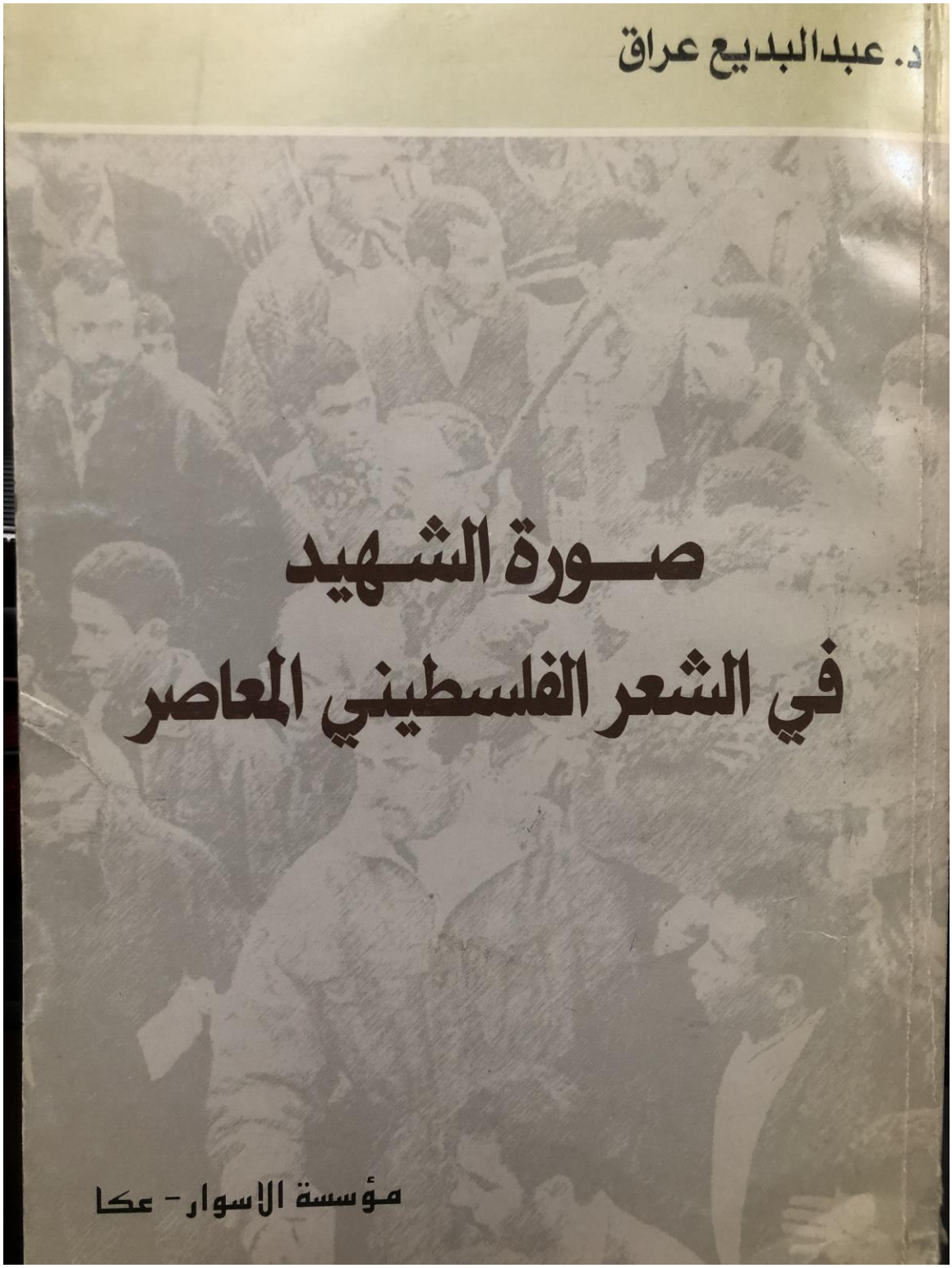

صورة الشهيد
في الشعر الفلسطيني المعاصر

مؤسسة الاسوار - عكا

طبعة اولى

مؤسسة الاسوار - عكا

٢٠٠٢ م

المطبعة العربية الحديثة

القدس - هاتف : ٠٢-٦٢٦٢٦٠٦

كلمة

أدفع بهذا البحث إلى المطبعة في أيام ترفرف عليها أعلام العزّ والفخار، ويُحنّيها دَمُ الشهداء الأبرار، والجرحى الأبطال، في انتفاضة الأقصى الثانية، التي اندلعت يوم ٢٠٠٠/٩/٢٨م، ولا زالت مستمرة متصاعدة حتى القدس والاستقلال والعودة بإذن الله.

لقد عُنِيَ البحثُ بدراسة «صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني المعاصر» قبل تفجر هذه الانتفاضة المباركة، وانضمام حوالي خمسمائة شهيد حتى اليوم إلى مواكب الشهداء الأبرار وأكثر من عشرين ألف جريح زينت أجسادهم أوسمةُ الجراح المختلفة. إلا أن الشهيد هو الشهيد، والجريح هو الجريح قبلها وبعدها وسواء نال هذا الشرف في بداية القرن العشرين أو نهايته أو حتى في بداية قرن جديد. فهو فخر لهذا البحث أن يُنشر في هذه الأيام، كما هو فخر له أن يكون الشهيدُ موضوعاً يدور البحث عليه.

ويهمني أن أذكر هنا أن الأستاذ الدكتور أحمد يوسف مدير معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية تحمس للبحث ووعدني بنشره، كما امتدحه عددٌ من الكتّاب الأجلاء في الصحف المصرية، وأذكر منهم الأستاذ أحمد بهجت في صحيفة الأهرام ودعا إلى نشره في كتاب، منوهاً باهميته في هذه الأيام بخاصة، وتحمس للبحث كذلك عدد من الأخوة والكتّاب في أرض الوطن وطلبت أكثر من جهة فلسطينية نشره، حتى استقر الرأي على (الأسوار - عكا) برئاسة الأخ يعقوب حجازي، فله الشكر والتحية.

وأود أن أشكر شعراء فلسطين الذين كتبوا لها بالدم الغالي، لأنهم مصدر البحث الأول، وأعتذر لمن لم يرد ذكرهم فيه، فقد اخترت نصوصاً لثمانية وتسعين شاعراً فلسطينياً تمكنت من الحصول على دواوين لهم، ولا شك أن هناك غيرهم لم أصل إلى شعرهم، متمنياً أن استدرك ذلك - أنا أو غيري من النقاد والباحثين - في أبحاث أخرى.

ولا أنسى الأستاذ الدكتور عاطف جودة نصر - آداب جامعة عين شمس، بالقاهرة ، الذي أشرف على البحث (الرسالة) وأعطاه من جهده وعلمه الكثير، وحثني على طباعته ونشره قائلاً: سوف يكون مرجعاً لما بعده من أبحاث. فجزاه الله عني خير الجزاء.

وأخيراً فإنني أرجو الله عز وجل أن يتقبل عملي هذا، ليكون في ميزان حسناتي عنده، وأن أخدم به وطني الحبيب فلسطين، وشعبها المجاهد الأبي، وأن يكون إضافة محمودة للنقد الفلسطيني والعربي، ومساهمة متواضعة في بيان مكانة الشهيد الرفيعة العالية، وقدره السامي عند الله وعند الناس، والله من وراء القصد، هو حسبي ونعم الوكيل.

دكتور عبد البديع عراق

سنجل - رام الله - فلسطين

٢٢ من المحرم ١٤٢٢ هـ الموافق ٢٠٠١/٤/١٥م

الفصـــــل الثـاني

صُوَرُ الشَّهيدِ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَد

(البُطولةُ وَالفِدَاءُ والتَّضْحِيَـة)

الاستشهاد قمــة التضحيــة

الاستشهاد في سبيل الله قمة التضحية ، وذروة سنام العطاء ، ومحور كل فداء وأصله ، وأقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من جود ، ورحم الله القائل :

يجودُ بالنفسِ إذْ ضَنَّ البخيلُ بِها والجودُ بالنفسِ أَقصى غايةِ الجُودِ

لأن الشهيد ـ باستشهاده ـ وتقديم النفس رخيصة في سبيل ما يؤمن به ويدافع عنه ـ يطلق صرخة مدوية لكل ذي أذن يسمع ، ويعلن إعلاناً واضحاً وصريحاً لكل ذي عين ترى ، وقلب يعي ، وعقل يفكر ، ضد ما يمكن تسميته بأمراض الفردية البغيضة ، والأنانية المدمرة ، والمادية الطاغية ، دفاعاً عن المثل والقيم العليا ، وانحيازاً لجموع الشعب ، وقضاياه العامة الهامة ، بحيث يطرح جانباً كل ما هو خاص وفردي ، من أهل ، وزوجة ، وأولاد ، ومنزل ، ومكتسبات شخصيــة قد تدير رؤوس الكثيرين حباً فيها، وتمنياً لاقتناصهــا ، وتكاد أعينهم تخرج من محاجرها ، تطلعاً إليهــا ، وطمعاً فيها .

ولا يستطيع عاقل أن يتصور مدى الخسارة الفادحة التى كان يمكن أن تصاب بها قضايا الشعوب وأمانيها ومستقبلها ، لولم تجد من الأبطال من لو حملوا لواءها ، وضحوا بأنفسهم على مذبحها ، وكانوا الجمر لنيرانها ، كما وصف أبو تمام القائد محمد بن حميد الطائي : " وبزته نار الحرب وهو لها جمر " .

ولا أتحدث هنا عن بطل أسطوري ، أو بطل فوق العادة (سوبرمان)، يقتل ألفاً من الجنود بضربة واحدة يميناً ، وألفاً آخرين بضربة أخرى شمالاً!! كلا ، فالبطل الذي أعنيه في حديثي هو هذا الإنسان العادي البسيط الذي يخرج من بين صفوف الشعب ، وحضن الجماهير ، وكأنه انتدب نفسه لحمل اللواء ، والمبادرة بالتضحية والفداء ، إنه الإنسان المسكون بهموم وطنه ، العاشق لقضايا شعبه ، فيترجم هذا العشق عملاً بطولياً ، يفرّج الهموم ، ويفتح السبل واسعة خضراء ، ويداوي الجراح ، ويصنع من جسده جسراً لتمر

الجماهير إلى فضاء العزة والكرامة ، رافعة ألويتها ، معلية هاماتها ، وينام قرير العين هانيها ، وقد أوصل الرسالة ، وأدى الأمانة . يقول الشاعر[١] :

هذي ضُلوعي أصبحَتْ جِسراً لجيش العشق حتى ينتصر

وقد سجلت أيام الثورة الفلسطينية المعاصرة كثيراً من الشواهد لعل الأمانة - إلى جانب حاجة البحث - تقتضي ذكرها :

- ففي أثناء الاستعداد لمعركة الكرامة (١٩٦٨/٣/٢١) حفر القائد / الفسفوري خندقاً أمامياً على ضفة نهر الأردن واستحكم فيه ليصد الهجمات الأولي لقوات الاحتلال ، وحاول كثير من رفاقه منعه من ذلك . فقال : " عندما حفرت هذا الخندق كنت أعلم أنه قبري ، فلا بد أن نصمد ونضحي حتى تستمر المسيرة ، وتأتي أجيال تحمل الأمانة من بعدنا ". وقد كان لصموده مع اخوته الشهداء الآخرين أكبر الأثر في تجاوز هزيمة ١٩٦٧ (بعد حدوثها بتسعة أشهر) وانضمام عشرات الآلاف من الشباب للثورة .

- كتب قائد عملية " ميونخ " في ألمانيا الشهيد عيسى رسالة وصية وكان يحضر للماجستير يقول فيها : " إن الشهادة التي أسعى للحصول عليها لن تجد الجدار الذي تعلق عليه ، فقررت الاستشهاد " وقد كان[٢] . (١٩٧٢/٨/٢٩).

- آلاف من الشباب الجامعي الفلسطيني تركوا دراساتهم في معظم أنحاء العالم. وكانوا في جميع التخصصات وانضموا إلى قوات الثورة الفلسطينية في الأردن ، وسوريا ولبنان ، وشكلوا ما سمي "كتائب الطلبة" وأبلوا بلاءً حسناً ، ومنهم من قضى نحبه شهيداً في سبيل الله ، ومنهم ما يزال يحتل المواقع المرموقة في صفوف العمل الفلسطيني .

- آلاف آخرون غيرهم كانوا يستقيلون من عملهم في دول البترول العربية ، - وهذه الوظائف كانت مطمحاً لكل انسان — وانضموا للعمل الثوري

---

(١) سعيد للزين ، في موقف العشق ، لجنة القدس ، القاهرة (مطبعة أطلس) ١٩٨٦ ، ص١٢ .

(٢) انظر خبر العملية كلها ، يوسف صبري ، ميونخ ، كيف ؟ روزاليوسف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

ولو بعد حين . فعلى الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على استشهاد هذا البطل الشاعر ما زلنا نتحدث عنه ونشِيدُ بتضحياته ، بل ويمشي على دربه عشرات الشهداء الأبطال دون كلل أو ملل ، لأن المعركة لم تنته بعد ، ولأن الوطن لم يعد كله بعد ، ولأن الحقوق لم تنتزع كلها بعد . وسوف تستمر قوافل الشهداء حباً لفلسطين ، وعطاءً للقدس ، وتضحية وفداء للشعب والأمة ولكل الأجيال القادمة حتى يأذن الله بنصره.

يقول الشاعر / د. رجا سمرين فيما يشبه الحقيقة المسلم بها[١] :

" ... وأَنّ الصمودَ بوجه العداة كفيلٌ بتحقيقِ كل المرادْ
وأن فلسطينَ لن تُسْتَرَدّ بغير الفداءِ ، بغير الجهادْ .. "

وفي موضع آخر يتحدث عن القتال ضد الأعداء ويؤكد الحقيقة نفسها فيقول[٢] :

" ... هو بابُ فردوسِ الإله ومنهجُ الأحرارِ نحو العزةِ الشّماءِ
لن تسترد الأرضُ إلا بالدّما والنصرُ لن يأتي بغيرِ فداءِ ... "

ويقول الشاعر نفسه في قصيدة طويلة مطلعها[٣] :

" بكيتُ على حدودِكِ يا بلادي وغَصَّ بريقِ حَسْرَتِهِ فؤادي
وغامَ الكون في عينيَّ حتى تَجَلَّلَ كل شيءٍ بالسّوادِ
....
بذلنا في سبيلِ القدسِ ما قدْ مَلَكَنا من طَريفٍ أو تِلادِ
ورَوّينا ثراها من دِمَانا بأغزر ما سقاهُ من العِهادِ
وما زِلْنا نُرابطُ في ثباتٍ وأَيدينا تَشُدُّ على الزِّنادِ "

وللشاعر نفسه أكثر من قصيدة في ابنه " محمد " الذي استشهد في معارك لبنان عام ١٩٨٢ سنوردها في حينه بإذن الله ، نقول ذلك لأن هذا الأب الثاكل ، الذي فقد فلذة الكبد وهو في ريعان الشباب صادق فيما يقول "بذلنا في سبيل القدس ... " وأي بذل أغلى من بذل فلذة الكبد وشقيق النفس ، وقرة العين ، وساكن القلب ؟!

---

(١) ديوان الدكتور رجا سمرين ، الكويت ، ١٩٨٥ م . ص٧ .
(٢) نفسه ، ص١٥ .
(٣) الطريق إلي أرض ليلي ، دار المعارف للطباعة والنشر ، تونس ، ١٩٩٠ ص٤٢ .

الفصـــل الثالـث

صُـوَرُ الدِّمَـاء

١ ـ الدمـاء تَسْقـي
٢ ـ الدمـاء والكتابـة
٣ ـ الدماء والتَّضَوُّع
٤ ـ الدماء والنُّشُـور
٥ ـ الدماء والخِضَاب
٦ ـ الدماء والتَّجَسُّد
٧ ـ الدماء والاغْتِسَال
٨ ـ الدماء والجَواهِر
٩ ـ الدماء والنَّبَـات
١٠ ـ الدماء وطبوغرافية المكان
١١ ـ الدماء والسلاح
١٢ ـ الدماء في المعاني العكسية

أما الشاعر / خالد نصرة[١] ، فهو يسقي الغد ، ويروي السلاح :

" **من دَمِ الثّأرِ من ثَخِينِ الجراحِ سوفَ أَسْقي غدي وأروي سِلاحي**"

والدم روى ثرى فلسطين بأكثر ماارتوت ماء طوال عهودها كما يقول الشاعر/ رجا سمرين متذكراً دَمَ ابنِهِ الشهيد (محمد) [٢] :

" **بذَلْنا في سبيلِ القدسِ ما قد مَلَكْنا من طريفٍ أو تِلادِ**
وروّينا ثَراها من دِمَانا بأَغْزَرِ ما سَقاهُ من العِهَادِ"

والدم عند الشاعر نفسه دموع حيث يقول[٣] وهو يرثي القادة الثلاثة الذين قتلوا في (فردان) ببيروت عام ١٩٧٣ م :

" **لو كان يُجْدي الندبُ والأحزانُ أو كان تُرْجِعُ راحلاً أَشْجانُ**
لقضيتُ عمري نادباً ومولولاً وطَفِقْتُ أبكي بالدما من بانوا
لكنما الشهداءُ لا يحلو لهم ندبٌ ، ولا يُرْضيهمُ أَسْوانُ"

هم ليس يرضيهم سوى سير على الدرب الذي فيه مشى الشجعان

ودم الشهيد روى البوادي فهو خالد لذلك الكرم كما يقول الشاعر/ محمد إبراهيم العزة[٤] :

" **اللهُ أكبرُ يا أَريحا زَغْرِدي لدمِ الشهيدِ أُريقَ في اسْتِبْسالِ**
يا قارِئَ القرآن لا تنسَ الألى أرواحُهمْ فازتْ بِحُسْنِ مَآلِ"

ولعل الزغرودة التي تطلق هنا لدم الشهيد أو في جنازته كما يفعل بعض الناس ليس فرحاً بقدر ما هي تعبر عن مزيد من الصمود والبطولة في وجه الاحتلال ، وشحذ الهمم لمزيد من العطاء ، حتى تُسْتَرَدَّ الحقوقُ ، ويُحَرَّرَ الوطن، دون أن ننسى ، بطبيعة الحال ، مكانة الشهيد في أمته وأنه ذاهب للجنة بدون حساب وهذا يُفْرَحُ له عند من يُقَدِّرون ذلك .

وتأتي الشاعرة / سُلافة الحِجّاوي بانغدران وتشبه بها تجمعات دم

---

(١) د. كامل السوافيري ، نفسه ص٤٨٨ .

(٢) الطريق إلى أرض ليلى ، نفسه ص٤٢ .

(٣) ديوان الدكتور رجاسمرين ، نفسه ص ٥٢ .

(٤) صحيفة "الحياة الجديدة" ، رام الله ، فلسطين ، عدد يوم ١٩٩٦/١١/١٧ ص١٢ .

ثالثـــاً : الدمـــاءُ والتَّضَـــوُّع

تجري الحرية في دماء العربـي ، فـي الشـرايين والأوردة،وهـي التـي تجعل المواطن العربي والشاعر العربي بشكل أوضـح يقدسـها ويعـرف حقهـا حق المعرفة. ولهذا فإن الأبطال حينما يقدمون أنفسـهم ودمـاءهم فـداء لحريـة الأوطان وحرية المواطنين ، فإنهم لا يأتون بهذا من فـراغ ، بـل تطبيقاً لهـذه الروح الجمعية التي نشأت فيهم وتربوا عليها جيلاً بعد جيـل. وعندمـا يتحـدث عنها الشاعر ويبدعها صوراً في شعره فإنه يخدم هذا المثـل السـامي ، ويعبر عن هـذه القيمـة الرفيعـة : قيمـة الحريـة للوطـن والمواطـن . أمـا أن يصـور الشاعر طلب الحرية والتضحية من أجلها ضد أعداء الوطـن والحريـة ، ضـد قرناء الظلام والظلم ، بأن دماء الأبطال والشهداء هـي عطـر يضمـخ الـتراب الوطني ، وبأنها طيب لثرى الأوطان وريحان ومسك وعنـبر ، فهـذا هـو قمـة الوعي بهذه الحرية ، وإعطاؤها المكانة اللائقة بها ، لتعرفها الأجيـال وتتمسـك بها ، وتتوارث هذه القيمة النبيلة جيلاً بعد جيل ، رافعة رؤوسها ، تتيـه فخـراً واعتزازاً بماضيهـا وحاضرهـا مهمـا اسـودت الأيـام ، وطـالت ليـالي الظلـم والظلام . ولعل ذلك كله يذكرنا بدم الشهيد يوم القيامة اللون لون الدم والريـح ريح المسك . فماذا قدم لنا الشاعر الفلسطيني من هذه الصور ، وكيـف قدمهـا في شعره ؟ نقدم أولا ما صوره الشاعر القائد الشهيد / عبد الرحيم محمود في قصيدتـه التـي سـماها " الشـهيد " ونظمهـا إبـان ثـورة فلسـطين الكـبرى ٣٦ – ١٩٣٩م . والتي مطلعهـــا :

" سَأَحْمِلُ روحي على راحتي ... وأُلقي بها في مهاوي الرَّدى
فإمـا حيـاة تَسُرّ الصديـقَ ... وإمـا ممات يَغيظُ العِـدَى "

يقـول[١] :

" وجسمٌ تجَدَّلَ فوقَ الهضابِ ... تناوشُـهُ جارحـاتُ الفَـــلا
فمنْه نصيبٌ لأُسْـدِ السماءِ ... ومنـه نصيبٌ لأُسـدِ الشّرى
كَسَا دمُهُ الأرضَ بالأُرجوانِ ... وأثقـلَ بالعطرِ ريحَ الصبا "

" ... يا ولـدي ما أروعكْ
وأنت تفـدي أربُعكْ
يا ليتني كنت مَعَـكْ
وأنت تلقى مصرعَكْ
كيما أقبل الجبينَ قُبلةً أو قبلتَيْنْ
كي ألثـمَ العينينِ مرةً أو مرتينْ
كيما أشـم عطـر دمـك الزكيّ
وهـو يخضِّـبُ الترابَ اليعربيّ
يعبد الطريق نحو القدس والخليلْ
وغزةٍ والرملةِ البيضاء والجليلْ ... "

إن الشاعر فاقد حزين يتمنـى (ليتنـي) أن يكـون هنـاك فـي جبـال لبنـان حيث استشهد ولده الحبيب الذي ورث أباه الحزن والهم وأفقده الاتزان والصـواب ، فهو شاب جامعي في الخامسة والعشرين من عمره ، لكـن ذلـك كلـه لـم ينـس الشاعر واجبه الوطني ولا القومي وهـو الـذي نشـأ فـي أحضـان نكبـة ١٩٤٨ وكان والده المرافق الخاص للمناضل الكبير الحاج أميـن الحسيني ، فـدم ابنـه الزكي العطر يخضب (التراب اليعربي) ، ويعبد الطريـق إلـى كـل فلسـطين ، وليس إلى جزء منها فقط .

ويستخدم الشاعر / محمد توفيق شديد فعل الأمـر "تضمخـي" مخاطبـاً فلسطين " أرض الحمى " في قصيدة عنوانها "عرس الفداء" " مهداة إلـى روح الشهيد وديع " فيقول(١):

" هاك ، يا أرض الحمى روي وروي من دمانا كل ذَرَّهْ
هاك منـــه تضمخـي وتزيَّني بالبـذل زينـة كل حُـرَّهْ
من شبابٍ قد تمرَّسَ بالفدا ، وأحاط فن الموت خِبْرَهْ
قد أقسموا ليزينوكِ من الدماءِ بكـــل طُغراءٍ وطُـرَّهْ "

---

(١) "ضحكات دامعة" نفسه ، ص٨٦ . والطُّغراء كما في المنجد " طرّ " : علامـة ترسم على مناشير الملك ومسكوكاته يدرج فيها اسمه مـع لقبـه .. الـخ. والطـرة : هـي أن تقطع للجارية في مقدم ناصيتها كالعَلَم تحت التاج .

إن الشاعر وهو يستخدم فعل الأمر " هاك " بمعنى خذي مرتين من فعلي : تمضخي ، وتزيني ، وهو يخاطب أرض الوطن كأنه يقرر حقيقة لا جدال فيها وهي وجوب أن يعطي شباب الوطن دَمَهُم للأرض كي تتضمخ به وتتزين لأن ذلك العطاء والدم زينة كل أرض حرة يدافع عنها أبناؤها . وهذه الحقيقة لا من فيها ولا فضل. ولهذا فإن هؤلاء الشباب وقد عرفوا حق الوطن. وقالوا لأرضه " خذي ... " (هاك) قد أخذوا للفداء عدته وخبروا أمور القتال والعطاء والبذل ، وأقسموا على عطائهم هذا غير هيابين ولا مترددين حتى تعود للأرض حريتُها وهي تتزين بهذه الزينة العطرة الغالية.

ودم الشهداء عند الشاعر نفسه ضمخ في الجزائر بعد أن سقى الفتية المقاتلون الأزهار من دمائهم الزكية " في حرب التحرير فيقول(١) :

" أي فجر ضَمَّخَتْ أَنْسامَه من رباها الخضرِ ، أَزهارُ عواطِرْ
مُذْ سقاها بالزكيِّ من الدما فتيةٌ في أرضهم صَنَعوا المقادِرْ "

وتتكرر لفظة " مضمخة " عند الشاعرة / فدوى طوقان وهي تتحدث عن بطل استشهد على الأرض الفلسطينية وقد عاد إليها من متاهات المنافي والغربة ، وكأنه يعود إلى أمه ، ويحتضنها بذراعيه . قدمتها "فدوى طوقان" بطريقة حوارية بين الابن العائد والأرض أمه . فتقول(٢):

" - رجعتَ إلي ؟
- رجعتُ إليكِ وهذي يدي
سأبقى هنا ، سأموت هنا ، هَيِّئي مَرْقدي
.....
بدا الفجر مرتعشاً بالندى يُذَرْذِرُه في الربى والسفوحِ
ومر بطيءَ الخطى فوق أرضٍ مضمخةٍ بنجيعٍ نَفُوحِ
تَلُفُّ ذراعين مشتاقيين على جَسَدٍ هامدٍ مستريحِ "

بعد سقوط الشهيد على صدر أمه الأرض واحتضانها له ، واحتضانه لها، اقترب الفجر وبدت بشائره وهو يرتعش بالندى الذي يذره في الربى والسفوح

(١) ضحكات دامعة ، نفسه ، ص٨٩ .
(٢) ديوان فدوى طوقان ، نفسه ، ص١٦٠ - ١٦١ .

على أرض فلسطين. ولعل استخدام الشاعرة للفعل "يذرذره" أفاد العموم والانتشار في كل الأماكن ، كما أفاد الحركة بهدوء ليقدم حال المرور (بطيء) في البيت التالي ، ويعطي الحركة عمقاً آخر ملياً ، بالهيبة والوقار لأنه الفجر سيمر على موضع مصرع البطل حيث تُضَمَّخُ الأرض بنجيع الدم الفواح ، وكأنه يؤدي له التحية ، ويقول له : نم قرير العين ، واسترح بين ذراعي من أحبتك وأحببتها ، وجئت إليها مشتاقاً من أرض المنفى والعذاب والغربة. إنها صورة مليئة بالحركة المهيبة المتأنية ، والألوان ، والروائح العطرة ، تجلب الحزن النبيل ، والدموع العزيزة على فقد هذا البطل الذي ضحى بدمه من أجل أمه الأرض وضمخ أديمها بدمائه الزكية .

وينقلنا الشاعر / توفيق زياد إلى العراق مستخدماً الفعل " يضمخ " وصفاً لدم الشهيد (فهد) [1] الذي أعدمته الملكية هناك عام ١٩٤٩بسبب ثورته على الطغاة والظالمين فيما سمي (بوثبة الجسر) عام ١٩٤٨. فيقول[2] :

"ناديتَ : يا شعبَ العراقِ إلى متى ... هذي الجباهُ الشُّمُّ تُمْعِنُ في السجودِ
وإلى متى تبقى دماءُ شبابنا ... عطراً يُضمّخُ عرشَ مملكةِ القرودِ ؟!
.....
يا فهدُ ، يا قلبَ العراقِ ودمّهِ ... وجبينَه المسبوكَ بالنورِ الوليدِ
يا فهدُ ، يا عبقاً يضوعُ على الربى ... وعلى الشوارعِ والمناجِمِ والنجودِ"

جراح الأمة واحدة ، وهمومها واحدة مهما ابتعدت المسافات واختلفت الأسباب ، لأن مصيرها واحد ومستقبلها واحد ، والعهد الملكي الظالم في العراق الشقيق ارتكب الجرائم البشعة في حق الشعب العراقي والأمة العربية كلها ، وإعدام "فهد" وربما غيره أيضاً بعض هذه الجرائم. وعندما يتحدث الشاعر توفيق زياد عن هذا الظلم وهذه الجريمة إنما يتحدث عن هموم العراق كله وبخاصة شبابه الثائر (شبابنا) الذين لم يضمخ دمهم التراب العراقي الطهور ، وانما (عرش مملكة القرود) ليعيش هذا العرش ، والجالس

---

(١) هو يوسف سليمان ، القائد العمالي الشيوعي في العراق الذي قاد (وثبة الجسر) عام ١٩٤٨ .

(٢) ديوان توفيق زياد ، نفسه ، ص٨٠ - ٨١ .

فوقه أياماً أخرى ، ولكن هيهات له أن يستمر جلاداً لهذا الشعب ولشبابه الثائر الذي قام في هبات أخرى ليزيح الظلم والظالمين. ولعل الصورة هنا جاءت في جزئين متناقضين:الأول لإعلاء مكانة دم الشباب الزكي العطر ، والثاني لاستنكار (عرش مملكة القرود). وكأني بالشاعر يقول : لماذا لا تقدم هذه التضحيات في سبيل أرض الأمة المحتلة ، وحقوقها المستلبة ؟! وإلى متى يبقى الأمر على ما هو عليه ؟! ثم يبشرنا الشاعر بندائه : (يافهد ...) بالنور الوليد بسبب هذه التضحيات الغالية ، لأن فعل البطولة ، وثمن الشهادة التي تقدمها الشعوب ، وتصمم عليها لا تتأخر كثيراً. فعبق الشهيد الذي يضوع ، ودمه الزكي الذي ضَمَّخَ العرش ، ينشر هذا النور الوليد على الربى والشوارع والمناجم والنجود حتى يلف أرض العراق كله فتنتفض وتثور .

ويستخدم الشاعر / رجا سمرين مصدر الفعل " مضمخة " وهو يرسم صورة الشهداء القرابين الذين يقدمون دماءهم الزكية من أجل (ليلى) فلسطين، وقد قدم هو نفسه ابنه الشهيد[١] محمد من أجل عيون (ليلى) فيقول[٢]:

" **تضيقُ المسافةُ بين الذين أضاعوا الطريقَ إلى أرضِ ليلى**
وبين الذين اهتدوا للطريقِ الصحيحِ
إذا أنت عَبَّدْتَهُ بالضّحايا
وإن أنت قَدَّمْت من أجلِ ليلى قرابين حُبِّك
مُضَمَّخةً بدماءِ الفؤادِ الزكي "

إن الشاعر يقولها بوضوح وبدون تعقيد : الطريق إلى فلسطين لا يكون صحيحاً إلا بالقتال ، وتقديم الضحايا والقرابين على مذبح الحرية والاستقلال. أما الحلول الأخرى فإنها تضيع الطريق ، وتضيع الحقوق . ولا يجني السائر فيها إلا الندم والخسارة . والصورة المركبة التي قدمها الشاعر تدل على تأكيد مايريد وثباته عليه .

---

(١) ابن الشاعر : الشهيد محمد رجاسمرين ، استشهد يوم ١٩٨٢/٦/٢٥ في معركة (بحمدون) بلبنان وهو يقاتل مع رفاقه الهجوم الصهيوني .

(٢) الطريق إلى أرض ليلى ، نفسه ، ص١٩ .

الفصـــــل الخامـس

صُـورَةُ الشَّهـيدِ الكُلِّيَّـة

تقديـــــم

١ـ الشهـــيد حَيّ مُخَلّـــد

٢ـ الشهـــــيد الغـافـــي

٣ـ زِفـــاف الشهـــــيد

٤ـ الشهيد وتجدّد الحيـــاة

٥ـ الشهيد وأُمومَـةُ الأرض

٦ـ دواعـــي الشهـــادة

٧ـ الشهـــيد والملصـــق

٨ـ صـــور متفرقـــة

صورة الشهيد الكلية

ونعني بها الصورة التي تتحدث عن الشهيد بشكل كلي جسدياً أو معنوياً على حد سواء. ولا تتضمن صورة الدماء ، ولا صورة الجراح لجزء من جسمه أو عضو من أعضاء جسده . وهي ، كذلك ، لا تعنى بتفصيلات لصفاته المعنوية في الدنيا ، قبل حال الشهادة : كالشجاعة والإقدام والبطولة . والعطاء والايثار والصدق والشهامة وحب الوطن والمواطنين إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التي تمجد البطولة ، ويرثى الرجال من أجلها ، فتدمع لغيابهم الأعين ، وتتصدع لفقدهم القلوب ، وربما تلطم الخدود وتشق الجيوب. فقد تقدمت كلها في الفصول السابقة من هذا البحث.

إنما ، قد توجد بعض هذه الصفات ، أو صور هذه الدماء وهذه الجراح في حواشي ما سنقدمه لصورة الشهيد وليس في مركزها ، وقد تأتي مكملة لمعنى من المعاني العامة لصورة الشهيد ، ولكنها ليست الأساس ، ولا مدار البحث : ومن ذلك ـ مثلاً ـ أن الشهيد حي أو أنه عروس لكنه يوصف بأنه (كان) زين الشباب ، أو شجاعاً صادق العزيمة وغير ذلك من الصفات التي أضفاها الشعراء على الشهيد في حياته ولكنها لا تطغى على المعنى المقصود ، والصورة المؤمل تقديمُها عنه وبحثُها وهي الأساس في هذا الفصل : حي ، وعروس .

صحيح أن صورة الشهيد في هذا الفصل تكاد تجمع كل ما تقدم في الفصول السابقة لأنها هي الكلية ، يتضافر معها ما سبق ويترابط بحيث لا يتأتى تحيتها أو عزلها . لكنه صحيح أيضاً ، أن هذه الصورة الكلية ـ هنا ـ لن تجور على الصور السابقة للدم والجراح أو تتعارض معها كتكرارها مثلا. فالصورة الكلية جاءت لتصور هذا الانسان الذي قتل ، وانتقل إلى عالم آخر (بجسده) غير عالم الأحياء الذي نعيش فيه ، بصور تمجده كشخص ، وتمجد أفعاله ، ومآثره ، والدور الذي قام به في سنوات نضاله حتى استشهاده ، والمبادئ التي دافع عنها ، والحقوق التي كان يطالب بها ، وأثر استشهاده في كل ذلك ، ثم أثره في أهله ورفاقه ووطنه من بعده . ثم إن هذه الصورة لا تكتفي بالإجابة عن السؤال : لماذا ؟ بل ربما تتعداها إلى الإجابة عن السؤال:

بكيف ؟ : كيف قتل ؟ وكيف لقي مصرعه ؟ وهل كان وحيداً أو ضمن جماعة من المقاتلين ، أو مدنياً بين مدنيين طالتهم مجزرة جبانة ؟ ثم هل قتل برصاص أم بشظايا قذيفة ، أم بتدمير وهدم ، أم تحت سياط التعذيب الوحشي، أم على حبل مشنقة ؟ وهي صور كثيرة ومتنوعة بسبب طول زمن اشتعال القضية الفلسطينية وهو ما يقرب من قرن من الزمان ، وبسبب اتساع مساحة ميدان المعارك وساحات القتال التي لم تكتف بأرض فلسطين بل تجاوزتها إلى محيط واسع من أراضي العالم العربي شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مثل حمام الشط وغيره في تونس ، والمفاعل النووي في العراق . مع أنها تركزت في دول الطوق العربية : مصر ، والأردن ، وسوريا ، ولبنان .

وقد اتفق الشعراء الفلسطينيون المعاصرون واختلفوا في إبداع هذه الصور ورسمها : حسب خصب خيال كل منهم ، فمنهم المبدع حقاً الذي جاء بالجديد والجميل معاً ، وهنا ظهرت المقدرة اللغوية والفنية. وحسب نظرة كل منهم للشهيد وللشهادة وكيفية وقوعها فمنهم من يمجد الشهيد القائد أو المقاتل في ساحة المعركة ولكنه لا يمكن أن يفخر بمن قتل غدراً من الأطفال والمدنيين فيصب صورته على الحزن والأسى ، ويصب جام غضبه على القتلة الذين لا يرعون إلاً ولا ذمة ، ولا يقيمون وزناً للإنسانية وقيمها. وربما حسب درجة القرابة التي تربط الشاعر بالشهيد أو مدى معرفته به قرباً وبعداً، فوصف الابن والأب والأخ والأم وغيرهم وما يحمله الشاعر لفقيده من عاطفة مشبوبة تجلب الحزن العميق والألم الحاد ، وذكريات مضت تكاد تَشْخَصُ واقفةً أمامه وهو يتحدث عنه ، وهذا غير الشاعر البعيد الذي يركز صورته على القيم والأخلاق بصورة عامة،لأنه لا يملك غيرها لهذا الشهيد الذي يتحدث عنه. أو حتى حسب التوافق الفكري والعقدي بين الشاعر ومن يريد تصويره من الأشخاص حتى لو بعدت المسافات في المكان والزمان ، وليس أدل على ذلك من رثاء شاعر فلسطيني للثائر الافريقي باتريس لومومبا، أو رثاء شاعر في السبعينيات لأبي الثوار (الشيخ عز الدين القسام) في الثلاثينيات .

ومهما اختلفت الصورة من شاعر لشاعر ومن مبدع لآخر وفق هذه الأمور ، أو معظمها ، فإنها نِتاجُ لغة الشعر الموحية المفعمة بالمجاز ،

والخيال المجنح حمال الرموز والصور التي تنقلنا من عالم الواقع المباشر إلى عالم آخر متصور ومتخيل ، نرى فيه الأشخاص والأشياء على نحو مغاير لطبيعتها ، فيقترب البعيد ، ويحيا القتيل ، ويحلو المر ، ويجمل المستبشع وهكذا .. فالشهيد ، الذي لا يشك أحد ولا حتى الشعراء أنفسهم أنه قتل ، وأنه لن يعود مرة أخرى إلى عالم الواقع ، عالم الأحياء على الحقيقة ، يصبح في الشعر ولغته وخياله حياً يرزق ينادي ويصيح وينام ويغفو ، ويفتح دكاناً للزهور ، وهو عروس في ليلة زفافه ، وهو قمر وغزال ومجداف العودة ، وسفن الرجوع وهو الوصية والعهد والمبدأ وصفحة المجد المطبوعة في ضمائر الرجال . وإذا كان الشهداء أطفالاً فهم الزغاليل وعليها الزغب، وهم السنابل ، وهم الزهور والأقحوان والزنابق ، وعشرات الصور الأخرى التي نوردها في هذا الفصل .

وطبيعي أن يتفق الشعراء الفلسطينيون المعاصرون ويختلفوا ليس فيما بينهم فحسب ، بل مع شعراء أمتهم القدامى سواء من ناحية أوزان الشعر وقافيته أو من ناحية المعاني التي طرقها هؤلاء وهؤلاء. فسنجد أن بعض الشعراء سار على طريق الأقدمين ونسج على منوالهم في تصوير القتيل أو الشهيد وتحدث عن الثأر ووصية الشهيد وألا يذهب دمه هدراً ، أو كالبكاء عليه ، والحزن لفقده وغير ذلك من الصور التي قدمناها في الفصل الأول من هذا البحث. ونجد بعضهم الآخر غيَّر وجدَّد وابتكر وزناً ولغة وصوراً مما سيتضح فيما يلي بالتفصيل ، ولهم على الباحث أن يعطي كل ذي حق حقه وبخاصة في النصوص المختارة .

ولعله من المفيد أن نسجل هنا أن كثيراً من صور الشهيد ، قد اختلفت حسب تقدم الحياة ومخترعاتها ، ووسائل التمدن حتى بين الشعراء الفلسطينيين في النصف الأول من القرن العشرين والشعراء اللاحقين في النصف الثاني من القرن نفسه .

ومن نافلة القول أن نذكر - أخيراً - أننا قسمنا هذا الفصل إلى مباحث عدة ، وأننا جمعنا الصور في المعنى الواحد في مبحث واحد لوحدة الموضوع، ولبيان قوة الإبداع ، ومدى الاتفاق والاختلاف بين الشعراء .

أولاً : الشهيد حَيٌّ مُخَلَّد

اتجه الشعراء في وصف الشهيد وتصويره إلى معنى يجد تحققه في تقابل الحياة والموت ، إنها حياة في ممات ، وممات في حياة ، صورة الخيال المبدع في اللغة الشاعرة . تضرب بجذورها في التراث العربي من حيث قيم البطولة والشجاعة وما إليهما ، كما تستفيد من التراث العقدي الإسلامي الذي أعطى الشهيد صفة أنه : حي عند ربه يرزق ، كما في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي قدمناها في حينها من هذا البحث .

ومع الحفاظ على المعنى العام (الحياة) فقد اختلف الشعراء في تقديم صورهم . فيكاد الشاعر/ رجاسمرين أن يكتب الآية الكريمة في قصيدته وهو يرثي ولده الشهيد محمد فيقول(١) :

" واللهُ - جَلَّ - بآيِ الذكر بشَّرنا (ما ماتَ مَنْ في سبيلِ اللهِ قد قُتلوا)
محمد لم يمت من أجل غانية ولم يقاتل وفي أعماقه دَخَلُ
لكنه في سبيل الله قد بذلت دماؤُه كي يعودَ السهلُ والجبلُ "

ثم يذكرنا بآيات قرآنية كريمة أخرى عن منزلة الشهداء مع النبيين والصديقين والصالحين في القصيدة نفسها فيقول على لسان زوجته أم الشهيد وهي تواسيه والحزن يفتت قلبها :

" لا تطرقَنَّ سوى بابِ الإله فمن يطرقْ سواه فقد ضلتْ به السبلُ
لئن قضى نحبُنا فالله أكرمه بأن يشفع إمّا تشفع الرسلُ
وحسبنا أنه أودى بمعركة وأنه كان نِعْمَ الفارسُ البطلُ
وأنه قد قضى من أجل عزتنا وما تَصَبَّاهُ أمرٌ تافهٌ وُشِلُ "

وقد وصف ولده الشهيد بصفات أخرى كثيرة ، منها أنه باستشهادِهِ عَبَّدَ الطريقَ إلى أرض الوطن ، وقد اخترناها في مكانها(٢).

---

(١) الطريق إلى أرض ليلى ، نفسه ، ص٥٠ .
(٢) انظر ، ديوان الدكتور رجاسمرين ، نفسه ، ص٤٧ ، وانظر ، الدماء والعطر في الفصل الثالث .

بقول المتنبي :

عش عزيزاً أو مُتْ وأنتَ كريم بين طَعْنِ القَنا وخَفْقِ البنودِ

وقوله في البيت الأخير : "فيعلم قومي بأني الفتى" تمثّلٌ لقول المتنبي :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أني الفتى

وبرغم هذه الروح الشعرية الهائمة بالتراث ، فإن في النص ما يدل من قريب على خصوصية القضية الفلسطينية ، وارتباطها بحركة الجهاد .

ويتحدث الشاعر بصيغة المتكلم ، وكأنه يصف نفسه ، فهو المقاتل القائد الذي لم يكتف بقول الشعر وتحريض الجماهير على مقاومة الاحتلال المزدوج : البريطاني - الصهيوني لبلده، بل حمل السلاح وقاتل حتى استشهد في ١٩٤٨/٧/١٣ في معركة الشجرة قرب الناصرة في شمال فلسطين. وقد أودع قصيدته كثيراً من صفات البطولة، وصور الشهيد التي تحدثنا عنها قبلاً.

نلاحظ مما تقدم أن الشعراء الفلسطينيين المعاصرين أفادوا من تطور صورة الشهيد بعد الإسلام فاستخدم بعضهم ألفاظ القرآن الكريم التي تتحدث عن الشهداء مثل الشاعر/ رجا سمرين وهو يرثي ابنه محمدًا، والشاعر/ سليم الزعنون وهو يرثي القادة الثلاثة أو القائد أبا جهاد . كما كثر استخدام معنى "أحياء عند ربهم" وتوسعوا فيه ، فالشهيد حي عند الجماهير ، وفي قلوب الناس، وفي قلوب الأجيال اللاحقة التي يجب أن تسير على نهجه ، وتكمل مسيرته التي ضحى من أجلها ، والأهداف التي كان حريصاً على الوصول إليها . فهو قدوة ، وهو نبراس ، وهو شعلة ، وهو نور إلى غير ذلك من التشبيهات والصفات . ولهذا فقد جمعوا مع الحياة الخلود والبقاء أي حياة في ممات ، وموت في حياة .

ويلاحظ كذلك أن الشعراء الفلسطينيين المعاصرين رثوا كل الشهداء من فئات الشعب الذين ضحوا من أجل القضية بأنفسهم طوعاً أو كرهاً وفق ملابسات عرضت لهم مثل قصف الطائرات ، أو المجازر الجماعية للعزل الأبرياء ، إلا أن الصورة تختلف بين هؤلاء وهؤلاء :

وذلك لأن رثاء أطفال ثورة الحجارة اختلفت عن رثاء أطفال مجزرة مثل كفر قاسم أو مجزرة صبرا وشاتيلا . فطفل الحجارة يُرْثى بعزة وكرامة وفخر ، فهو الرجل ، وهو الذي يُعْجِزُ قوات الاحتلال ، وهو الذي طرزَتْهُ مائة طلقة. وهو الذي يلاحق الدبابة والجنود كالأَسَد ، وفوق ذلك فإن بعضهم يذكر

تخليداً له ، وشهادة لبطولته . على حين أن أطفال المجازر لم يذكروا
م ، كما كان رثاؤهم حزناً ولوعة ودموعاً لا فخر فيها ولا عزة .
وفي هذا المعنى صور الشعراء الشهداء الكبار في السن والشباب
ساء والأطفال وذكرت الشهيدات الصبايا والشابات في مقتبل العمر مثل
لال المغربي ، ولينا النابلسي وسناء محيدلي في جنوب لبنان ، ومنتهى
وراني وغيرهن . ولعل رثاء البطولة في الشعر العربي لم يعرف رثاء
ساء أو لم يكن بهذه الكثرة على أقل تقدير ، مما يشير إلى تطور النظرة
الاجتماعية للمرأة بسبب تطور دورها في المجتمع بعد أن صارت تؤدي كثيرا
مما يؤديه الرجل . ويكفي أن نذكر أن الشهيدة البطلة : دلال المغربي كانت
قائدة للعملية البحرية التي نزلت على شواطئ فلسطين المحتلة جنوب حيفا يوم
١٩٧٨/٣/١١ وتحت قيادتها اثنا عشر شاباً من رفاقها .

ولم يقصر الشعراء صورهم الشعرية على الشهيد الفلسطيني فقط ، وإنما تحدث الشعراء الفلسطينيون عن شهداء الأمة العربية كلها مما يشير إلي النفس القومي ، والشعور العروبي عندهم ، وأنهم من هذه الأمة ، وأن كل خير يصيبها يصيبهم وكل شر يهددها يهددهم ويهدد شعبهم الفلسطيني . فرثى الشعراء شهداء من مصر ، والجزائر وليبيا ، ولبنان والعراق واليمن وغيرها وتغنوا ببطولاتهم معلنين أن الجرح واحد من المحيط إلى الخليج .

وأكثر من ذلك فإن نظرة الشاعر الفلسطيني اتسعت أكثر لتشمل العالمية والإنسانية فقد تحدث عن الأبطال والبطولة في كل مكان ، وبخاصة عند الشعوب التي ذاقت ويلات الاستعمار ، وعانت من ظلمه وجبروته ، فرثى الشاعر الفلسطيني الثائر الأفريقي المغدور باتريس لومومبا من الكونغو، ورثى جيفارا من بوليفيا ورفيق فيديل كاسترو رئيس كوبا الحالي وغيرهم .

ولا يغيب عن المتتبع لصورة الشهيد في هذا الفصل على الأقل أن كثيراً من الشعراء رثوا القادة ـ مع رثائهم بقية الشهداء من أفراد الشعب ـ ولم يكن ذلك إلا عن حب الشعراء للقادة الذين احتضنوا شعبهم وأمتهم ، وضحوا

الفصـــــل السـادس

ظَواهِـرُ وقَضَـايـا فَنِّيَّـة

- الشهداء العرب والنظرة القومية .
- المناضلون العالميون ، والرمز الإنساني .
- ظاهرة توظيف التراث الشعبي الفلسطيني .
- الصّليب والجُلْجُلة .
- التَّناصّ بين التراث والإسقاطات السياسية .
- تعدد الأصوات الشعرية ، والقيمة الفنية .
- اللغة وتشكيل الصور الشعرية .
- الأوزان والإيقاعات العروضية .

الشهداء العرب .. والنظرة القومية

اتضح في الفصول السابقة كيف احتفى الشعراء الفلسطينيون في شعرهم بالشهداء والجرحى الفلسطينيين ، فأنزلوهم منزلة رفيعة ، ومقاما سامياً . كما اتضح في الوقت نفسه أن هؤلاء الشعراء لم يقصروا احتفاءهم هذا على الشهداء الفلسطينيين فقط ، بل امتد احتفاؤهم امتدادا طبيعيا إلى إخوانهم من شهداء الأمة العربية كلها . وإذا كان البحث قد اقتصر على الشعر الفلسطيني المعاصر فقط ، فإنه لا يمكن أن يخطر على بال الباحث، ولا بال الشعراء في لحظة من اللحظات أن يفرق بين شهيد وشهيد باختلاف الأماكن أو الدول . فالشهيد واحد مهما اختلفت المسميات ، والحدود ، والأماكن. وقد حرصنا على تجلية هذه الحقيقة الساطعة باختيار عدد من النصوص الشعرية في أماكنها من البحث تحدثتْ عن شهداء من الوطن العربي الكبير ، وكونت مع غيرها من النصوص نسيجاً واحداً ، وإن كان بينها ثمة فرق ففي الكم دون الكيف : فالشهيد عَلَم ، ومعلم ، وقائد ، وقدوة ، ونور ، وهو بحر عطاء ، ونهر فداء ومحبة ، ونبع بطولة ، وهو راية النضال ، وشجرة الحرية ، وورد التضحية ، وهو حي لم يمت ، وحاضر لم يغب ، وإنه لعائد ليحتفل بالنصر مع رفاق الدرب والمسيرة .

لقد صور الشاعر الفلسطيني الشهيد فأخرج من ظلام الحزن والألم على الشهداء نورَ الأمل وصباحَ النصر . ومن حفر القبور الموحشة خطوات الحياة والانطلاق والمشاركة . وطرّز ذلك كله بشعور قومي عربي محض، يعرف للأمة حقها ، ويقدر الأخوّة وصلة الرحم ووحدة الدم والمصير حق قدرها . فالفلسطيني بعامة والشاعر والمثقف بخاصة ، عربي بدمه ومشاعره وتطلعاته ، وَحْدَوِيٌّ بفكره وعواطفه وأهدافه . ولم يترك الشاعر الفلسطيني موقعة بطولية في كثير من أرض الوطن العربي إلا أشاد بها وسجلها وغنى لبطولات رجالها ونسائها وأطفالها منطلقاً من حقيقة أساسية واضحة هي أن أمة العرب أمة واحدة ، وظروف التجزئة والحدود

ورثى الشاعر نفسه[١] شهيداً من الأنصار في الجزائر وقد اخترنا منها في موضع سابق .

ويقول الشاعر/ محمد توفيق شديد[٢] عن ثورة الجزائر وأبطالها وشهدائها :

" في نضال قد غدا أنشودةً لحنُها في الأرض عدةُ كل ثائرْ
في نضال ما وعته سيرةٌ من بطولاتِ الأوائلِ والأواخرْ
والجماهير إذا ما التحمتْ فِعْلُها في كل أمرٍ ، فعلُ ساحرْ
يا جزائرُ ، كم تمنيتُ أرى مسرحَ الأمجادِ في أرضِ الجزائرْ "

وفي قصيدة أخرى للشاعر نفسه ، يرثي البطل الجزائري : عبد القادر الجزائري بمناسبة نقل رفاته من دمشق إلى الجزائر بعد تحريرها فيقول[٣] :

" حيوهُ أبسلَ قائدٍ ومنافحٍ عن أرضِهِ ، وأجلَّ عائدْ
حيوه فكراً ثائراً ، كَمْ عارك الطغيانَ والجبروتَ صامدْ
حيوا مناقبَهُ التي كانت بذورَ النصرِ في الشعبِ المجاهدْ
.....
اليوم ليت ترى بلادك طُهِّرَتْ من رجسهم بالدم بَذْلا
وغدت مقدسةً ، لها ، كم حَجَّ ثوارٌ وكم أوحَتْ لشاعرْ "

ويهنئ الشاعر/ رجا سمرين[٤] الشعب الجزائري البطل بانتصار ثورته على الاستعمار الفرنسي فيقول :

" حانَ يا شعبُ قطاف الثمرِ فهنيئاً لك نيلُ الوطرِ
....
فلتقر اليوم أرواحُ الأولى مهروا النصرَ ببذل العُمُرِ
وليرفرفْ فوق أوراسَ السَّنا ولتعانقْها لحونُ الظفرِ
ولتته فيها أسودُ قلّمتْ مخلبَ الباغي الأثيمِ الأشِرِ "

---

(١) نفسه ، ص١٣٩ .
(٢) ضحكات دامعة ، نفسه ، ص٩٠ .
(٣) نفسه

ويقول الشاعر/ هارون هاشم رشيد تحية لشهداء المغرب :

" رَدِّدِي، رددي صلاةَ الجهادِ يا دماءَ الأحرار في كل وادي
رددِيها على الذرى والروابي ملهمـــات الايحاء والانشـادِ
....
رددِيها تباركُ الثورةَ الشعواءَ في مَغْـــرِب العُلا، والجِلادِ
* * *
يا دماء الأحرار تجري سخاء فوق أرض الآباء والأجـدادِ
سطري آية الكفـاح كتابـاً خالداً للبنينِ والأحفـادِ "

هذا قليل من كثير من نظرة الشعراء الفلسطينيين القومية وتحية شهداء الأمة العربية في كل أقطارها، رسم الشعراء صورة الشهيد فيها بشكل وكيفية فنية لا تختلف في شئ عن رسم صورة الشهيد الفلسطيني ، فالشهيد واحد في كل مكان ولا تفرقة بين شهيد وآخر البتة .

وقد سقنا هذه النصوص المختارة من الشعر الفلسطيني المعاصر لتأكيد معنى أساسي في هذا الشعر ، يتمثل في وحدة الشهيد، تلك التي تستمد مغزاها من أيديولوجية موسومة بطابعها القومي العربي .

وهذه هي الظاهرة السائدة في الشعر الفلسطيني المعاصر، وهي تطرح من قريب قضية تتمثل في العلاقة بين الأيديولوجية وبين الشعر، وبعبارة أخرى ، مدى الارتباط بين الالتزام الأيديولوجي والسياسي وبين شعرية الشعر. كثيرا ما أثار النقاد والدارسون هذه القضية وانتهوا إلى وجهات نظر متباينة ، فمنهم من ذهب إلى أن الالتزام الأيديولوجي كفيل بأن يفسد الشعر وأن يقلل من قيمته الفنية بدعوى ما فيه من مباشرة وتقرير وخطابة تلوذ بعرض الحجج ومدافعة الخصوم ، مما يوقع الشعرَ في حبائِل الدعاية، ويجعله أسيرَ الإعلام. ومن النقاد من يذهب إلى عكس هذه الدعوى، على نحو ما نجد في المنجزات الأدبية، في الرواية ، وفي المسرح، وفي الشعر، مما جنح إليه الكتاب والشعراء الذين تبنوا قضايا لها أبعادها السياسية

والاجتماعية ، كالأدب الزنجي في الولايات المتحدة ، وأدب الكتلة الشرقية التي تدين للماركسية بالولاء .

إن المعيار الذي تُقاس به شعريةُ الشعر الآخذ بمبدأ الالتزام الأيديولوجي إنما يُبْحث عنه في مدى التلاؤم بين جوهر الشعر من حيث هو رمز وإيحاء وتصوير ولغة شديدة الخصوصية، وبين الأيديولوجية السياسية من حيث هي التزام بقضيةٍ لها أبعادها وبنيتها ومنطقها. لذلك فإن الشعر الفلسطيني المعاصر، يمثل هذا الوضع أصدق تمثيل فهو شعر سياسي في صميمه ، فيه ما في المواقف السياسية والنضالية من أيديولوجية والتزام، فهل وفق الشعراء الفلسطينيون في تحقيق التلاؤم الذي سبقت الإشارة إليه ؟ إن الرجوع إلى دواوين الشعر الفلسطيني المعاصر يؤكد في سياق القضية المطروحة أننا بإزاء نوعَيْن من هذا الشعر ، نوع منه يكشف عن تلاؤم وانسجام وتوازن في حدي العلاقة المطروحة ، بحيث لم يطغَ الموقفُ الالتزامي على فنية الخطاب الشعري ، ومن هذا النوع نماذج من نصوص شعرية وردت في فصول البحث . وثم نوع آخر هبطت قيمته الفنية لطغيان الموقف السياسي بحيث جاءت أساليب هذا الشعر أقرب ما تكون إلى النثرية والمباشرة وجدل الخطابة المدوى. وقد أوردنا منه نماذج تشير إليه وتدل عليه.

كأن القضية في مجملها ترجع إلى علاقة الفن الشعري بالسياسة، مما نجد له بواكير في شيءٍ من تراث الشعر العربي لا سيما عند الفرق ذات النزعات العقدية والسياسة.

صحيح أن للشعر مجالا ، كما أن للسياسة مجالا ، وصحيح كذلك أن المجالين متباعدان من حيث طبيعة الخطاب، غير أن الشَعراء المتميزين في الآداب كلها حققوا هذا التوازن المنشود لصالح الأداء الفني حتى يتخلص النص الشعري من خشونة الخطاب السياسي وفجاجته المباشرة .

المناضلون العالميون .. والرمز الإنساني

لم تتوقف نظرة الشاعر الفلسطيني عند الشهداء العرب، والروح القومية الوحدوية ، إنما تتعدى ذلك إلى نظرة إنسانية أممية شاملة تمجد النضال البشري بعامة حيثما وجد الكفاح والنضال ضد الاستعمار والظلم والقهر. وفهم الشاعر الفلسطيني أن هؤلاء المناضلين مثل جيفارا ، وباتريس لومومبا وغيرهما قد تزحزحت صورتهم الشخصية وعملهم الفردي وحل محلها القيمة الرمزية للنضال والكفاح التي لا تتحدد بزمان ولا تتعين بمكان، وانما تتساح وتتوغل لتعم البشرية بعامة ، والشعوب المظلومة المستعمرة بخاصة.

وعندما كرس الشاعر الفلسطيني هذه القيم الرمزية للنضال والكفاح، فقد أكد إنسانية الثورة ضد الظلم والقهر والاحتلال والبطش مما يقسم العالم إلى قسمين على طرفي نقيض : أحدهما : معتد أثيم يحتل أرض الآخرين ويمتص دماءهم وخيرات بلادهم، ويقترف في حقهم أبشع الجرائم في سبيل ذلك، وكأنهم ليسوا بشراً ومواطنين لهم الحق في أرضهم وحكم أنفسهم، وخيرات بلادهم ، بل هم عبيد لهذا المعتدي ، وُجِدُوا لخدمته ، وخُلِقوا لتحقيق رغباته . وهي نظرة عنصرية مقيتة تقوم على قوة القهر، وقهر القوة ، وهي مرفوضة على كل المستويات الأخلاقية والدينية والانسانية على حد سواء. وثانيهما : طرف مظلوم يقاسي آثار الاحتلال من الجوع والجهل والمرض، يقاوم المحتلين بكل ما يملك من أسلحة حتى لو كانت بدائية ليدفع عنه هذا الظلم ، وينفس عنه هذا العدوان الغاشم، فيحتفظ بأرضه ووطنه وخيراته ويعمل على التقدم والازدهار.

فالشاعر الفلسطيني – والحال هذه – يقف إلى جانب الحق والعدل والحرية، ولا يماري في رفض الظلم والقهر والاستبداد والتنديد بها وإدانتها، وليس هذا فقط من قبيل " إن الشجا يبعث الشجا " كما يقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك ، بل هو موقف مبدئي لا يتزعزع استمده الشاعر من تراثه العربي العريق حتى قبل الإسلام، كإغاثة الملهوف ، والانتصار للمظلوم،

وإجارة المستجير ، وإيواء المشرد ، كما استمده بقوة من عقيدته الدينية السمحة التي دعته إلى عدم الظلم ، والوقوف مع المظلوم حتى يأخذ الحقَّ له، ودعته إلى التمسك بالحق والعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، وليس الاقتتات على حقوق الآخرين وسلبها بالقوة الغاشمة المرفوضة. ودعته إلى إفشاء السلام بين الناس قولاً وعملاً ، والرحمة بالضعيف والفقير، وذي الحاجة، وأكدت على حقوق الشيوخ والنساء والأطفال ، والعطف عليهم ، وحثت المؤمن على ترك حرية العبادة للآخرين فلا إكراه في الدين، ومنعته من هدم الصوامع والبيع وكل دور العبادة . وأكثر من ذلك حذرت الشريعة الغراء المؤمن المقاتل في سبيل الله من قطع الشجر أو قتل ماشية الأقوام الآخرين . وكلها قيم سامية عرفها العربي قبل الإسلام وبعده وفي تطبيقها يسود السلام بين الناس وتعم المساواة بينهم { فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى} وتزدهر الأرض بالخير والحب والحق والعدل.

ولقد أضاف الشاعر الفلسطيني لهذه الينابيع القيمية الصافية ، ما أخذه من الثقافات الأخرى قديمها وحديثها ، وما اطّلعَ عليه من ثقافات الشعوب وحضاراتها. ولهذا كله جاءت نظرة الشاعر الفلسطيني الانسانية الرفيعة لتؤيد الحق والعدل والحب والجمال، وتدعو لها وتصورها بأجمل صورة، وترفض الظلم والقهر والعدوان ، وتدعو لنبذها ومعاداتها وتصورها بأبشع الصور وأحطها.

ولا تكاد صورة البطل الانساني العالمي رمز النضال والكفاح تختلف في شئ عند الشاعر الفلسطيني عن أخيه الشهيد الفلسطيني أو العربي إلا في ذكر بعض التفاصيل في الزمان والمكان مثل المذابح ومتى حدثت وأين وقعت. والذكريات المشتركة : كأسماء المدن والبلاد والمخيمات ، والزمالة والجيرة والصحبة وما إلى ذلك .

فثوار إفريقيا هم إخوة الشاعر في الكفاح كما يقول الشاعر/ حنا أبو حنا[1] في الجزائر ، أو في كينيا أو غيرهما :

ستعيش في مقـــل الشعـــوبِ ، وفي الدم المتمردِ
وتعيشُ فـي خَفْقِ البنـــودِ المشرعـــاتِ إلى الغَـدِ
.....
يا إخـــوتي المتَزَنّرينَ على البنـــــادِقِ والحرابِ
في قلب افريقية السوداءَ ، في خُضْـــرِ الشعـــابِ
.....
فامشوا على اللهب المقدس ، مشيةَ الحُرِّ المُهابِ
ودعـوا الـــدم الغالي يلون كـــل شبرٍ من ترابِ "

ويقول الشاعر/ سميح القاسم[١] عن باتريس لومومبـا مركـزاً علـى أنـه شـاعر الحرية :

" لاطمِ الريح بالجناحيْنِ ، واصعَدْ ، يا حبيبَ الحرية المتمردْ
أيها النســر الذي راعَــهُ العيـــشُ بوادٍ كابٍ ذليلٍ مقيّدْ
.....
فاحمل المشعل العظيم ومزق ما أراد الغـــزاةُ ليلاً مخلّدْ "

ويحي الشاعر/ رجاسمرين[٢] شهيد الحرية بـاتريس لومومبـا ويصـب جام غضبه على المستعمرين وعملائهم في الكونغو فيقول :

" كازا فوبو ، موبوتو ، تشومبي : أسماءُ شوهاءُ قبيحهْ
عمـــلاءُ من أقـــذرِ صنـــفٍ ، خنقوا أنفاسَ الحريهْ
قتلـــوا حارسَهـــا لومومْبـــا ، لـــم يرعوا حقاً للكنغو
من أجل مصالح شخصيهْ ،
لومومبا أغنية حلـوهْ قرعت أسماع الأدغالِ
فأفاقت تحطم في قوهْ عنها حلقـاتِ الأغلالِ "

وعن الثائر البوليفي آرنستو جيفارا الذي ناضل مع ثوار كوبا وأخذ مداً عالمياً للثورة على الظلم أينما كان ، كتب الشاعر/ سالم جبران يقول[٣]:

---

(١) ديوان سميح القاسم ، نفسه ، ص١٠٧ ـ ١٠٨ وانظر قصيدة محمود درويش "أغنيات حب إلى أفريقيا " ، المجلد الثاني ، نفسه ، ص١٤٧ـ ١٥٦ .

(٢) ديوان الدكتور [illegible] ، نفسه ، ص٦٢ .

والثانية : أن يستخدم (ياء) المتكلم وكأنه يمثل كل الشعب والأمة ، وأن جراحها ونضالها اختصر فيه . لأنه ساعتها لا يمثل نفسه بقدر ما يمثل الشعب كله بانتصاراته وانكساراته ، بتضحياته وبطولاته .

ولعل دلالة ذلك كله أن الجماعة أو الشعب أو الأمة قد تلبست الشاعر، أو أدخلها هو لضميره ونفسه فأصبحا جزءاً واحداً ، أو كلاً واحداً لا يتجزأ ، فهل هذا نابع من تراث عريق في كون الشاعر لسان القبيلة والمتحدث باسمها ، والمنافح عنها ، والحافظ لبطولاتها وأنسابها وغير ذلك ؟

أم هو انتماء من نوع جديد نابع من خصوصية القضية الفلسطينية، وأهميتها العظيمة للشعب الفلسطيني وللأمة العربية كلها على حد سواء. وأن هذا الشعب البطل وهذه الأمة العظيمة حلا محل القبيلة العربية الجاهلية ؟

ونقول ربما كان الجواب هذا أو ذاك ، وربما كان الاثنين معاً ، ولكن الشاعر الفلسطيني - على كل حال - أثبت أنه ابن القضية وابن الشعب والأمة، بل ارتفع بشعوره الانساني ونظرته العالمية ليكون مع الحق والخير والجمال في كل مكان وضد الظلم والقهر والاستبداد. ونقول كما قال شيخ شعراء فلسطين ، زيتونة فلسطين : عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) [1] : " ستبقى وحدةُ الشعر مع وحدة النضال في فلسطين " .

تعدد الأصوات الشعرية

اتضح مما سبق أن الشعراء الفلسطينيين المعاصرين لم يكونوا جميعاً يعزفون على وتر شعري واحد من ناحية وسيلتهم في التعبير عن الصور والأفكار التي أوردوها في شعرهم. بل تعددت أصواتهم ، وهذا أمر طبيعي ، مع تعدد الثقافات والبيئات . فمنهم من حافظ على الصوت الكلاسيكي العمودي في شعره ، ومنهم من جدد فاستخدم التفعيلة في البحور الصافية ،

---

(١) انظر ، مقدمته لديوانه ، ص٧ .

ومنهم من جمعوا بين الصوتين معاً فاستخدموا الصوت الكلاسيكي مع بداياتهم الشعرية ، ثم تركوه للتفعيلة واستخداماتها .

ولعل معري فلسطين ، وبرهان الدين العبوشي ، ومحمد الحوت ، ومحد العدناني ، وخليل زقطان من الذين حافظوا على الصوت الكلاسيكي العمودي منذ البداية وحتى النهاية ، ولم نعثر لأي واحد منهم على شعر تفعيلي البتة .

أما الشاعران الكبيران إبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) فإنهما - مع محافظتهما على الصوت الكلاسيكي - أبدعا شعراً متعدد القوافي والأوزان في القصيدة الواحدة ، مثل الثلاثاء الحمراء عند الأول[١]، والأناشيد عند الثاني[٢] ، ولعلهما كانا بذلك من المجددين ولو بشكل جزئي يذكرنا بالموشحات الأندلسية .

وممن جاء بعدهم نجد أن معين بسيسو ، ومحمود درويش ، وسميح القاسم ، وتوفيق زياد ، ورجاسمرين وشهاب محمد وغيرهم بدأوا بالشعر العمودي الكلاسيكي ثم تحولوا إلى شعر التفعيلة ، واستمروا عليه حتى الآن. وربما كان هذا التحول بعد الستينيات من القرن العشرين وذيوع الكتابة الشعرية بالتفعيلة وانتشارها.

وهناك شعراء لم يكتبوا شعراً عمودياً أو أنهم كتبوا ولكنه قليل جدا أو أنهم لم يثبتوه في دواوينهم لأنه كان بدايات لا تنم عن شاعريتهم مثل: أحمد دحبور، ومريد البرغوثي ، وعلي فودة ، ومنذر عامر ، وفيصل قرقطي وغيرهم .

وأخيراً هناك شعراء آخرون لم نعثر لهم ولا سمعنا أنه يوجد لهم شعر عمودي ، مثل عثمان أبو غربية ، والمتوكل طه ، وعبد الناصر صالح، ومحمد حلمي الريشة، وربحي محمود ، وسليمان دغش وغيرهم .

---

(١) انظر ، ديوان ابراهيم ، نفسه ، ص٣٦ .

(٢) انظر ، ديوان أبي سلمى ، نفسه ، ص ١٢٩ - ١٥٣ .

ودلالة ذلك كله ـ فيما نعتقد ـ أن الشاعر الفلسطيني كان ابن بيئته الشعرية العربية التزم بالصوت الكلاسيكي العمودي عندما كان هو السائد ولا صوت غيره ، ثم بدأ يجدد مع غيره من أشقائه العرب ، ويسير في ركب الشعر العربي فاعلاً ومشاركاً غير منفصل عن هذا الركب . كما أن الشاعر الفلسطيني ـ بذلك ـ كان وما يزال صانعاً لواقع ولمستقبل الشعر العربي، ولم تزده خصوصية قضيته الفلسطينية إلا تشبثاً بأمته وحضارتها وآدابها وصنع مستقبلها .

وليست ظاهرة تعدد الأصوات في سياق الخطاب الشعري وقفاً على الشعراء الفلسطينيين ذلك أننا نجدها في أنحاء الوطن العربي ، وبالرجوع إلى نتاج الشعراء نجد تفاوتاً في القيمة الفنية ، فمنهم من أجاد في حدود الشكل الكلاسيكي التراثي حتى إذا أخذ بتجريب الأشكال المحدثة تسرب الوهن إلى نصوصه ، ومنهم من قصر في الآداء عند الأخذ بالإطار التراثي ، وأجاد عندما أهاب بالنظام الإيقاعي المبتدع ، ومنهم من أصاب التمكن وحقق الإجادة في الشكلين .

قيمة النصوص الشعرية

يهمنا أن نوضح أن الحديث عن تعدد الأصوات عند الشعراء الفلسطينيين بين الكلاسيكية العمودية والتجديدية التفعيلية ليس حكماً على قيمة ما كتب بهما من نصوص ، إنما هو تسجيل للواقع. وقد أوضحنا في أكثر من مناسبة خلال هذا البحث أن مدار جودة الشعر، ومنزلة القيمة الشعرية للنص لايرجع إلى الشكل الذي يكتب فيه والقوالب التي يوضع فيها بقدر ما ينبع من القيمة الفنية للنص نفسه. فكم من النصوص الكلاسيكية العمودية لا يملك الباحث إلا أن يقف عندها شارحاً ومحللاً ومخرجاً ما بها من جمال فني في الصياغة والصور والأخيلة والمعاني ، وكم من نصوص كتبت بالتفعيلة ولكنها لم تتجاوز السطور التي كتبت بها لأنها مباشرة جافة لا فن فيها ولا رواء ولا جمال.

مصادر ومراجع

١٢ـ حافظ عليان : دفاع عن الجملة المعترضة ، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، بيروت ، رقم (٥) ١٩٧٤م

١٣ـ حسن البحيري : ١ـ حيفا في سواد العيون ، مطابع العلم ، دمشق ، ١٩٧٣م

٢ـ لفلسطين أغني ، مطبعة دار الحياة ، دمشق ، ١٩٧٩م

١٤ـ حسن خليل حسين : ثم كانت العاصفة ، دار الاتحاد ، بيروت ، ١٩٧٠م

١٥ـ حسين مهنا : فرح يابس تحت لساني ، البقيعة ، الجليل ، فلسطين ، ١٩٩٦م

١٦ـ حلمي الزواتي : عبير الدماء ، مكتبة الخلود الكبرى ، العباسية ، ط٢ ١٩٧٦م

١٧ـ حنا أبو حنا : نداء الجراح ، مكتبة عمان ، ١٩٦٩م

١٨ـ خالد أبو خالد : ١ـ وسام على صدر المليشيا ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧١م

٢ـ اجتياز الليالي الألف يبدأ بخطوة واحدة ، تغريبة خالد أبو خالد ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٢م

١٩ـ راشد حسين : أنا الأرض لا تحرميني المطر ، الإعلام الفلسطيني الموحد (فلسطين الثورة) ، بيروت ، ١٩٧٦م

٢٠ـ ربحي محمود المرقطن : من أجل عينيك ، دار السياسة ، الكويت (بدون)

٢١ـ د. رجا سمرين : ١ـ ديوان الدكتور رجا سمرين ، الكويت ، ١٩٨٥م

٢ـ الطريق إلي أرض ليلى ، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة ، تونس ، ١٩٩٠م .

٢٢ـ زهير أبو شايب : جغرافيا الريح والأسئلة ، دار العودة والاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، بيروت ، ١٩٨٦م

٢٣ـ زياد أبو الهيجاء : حلم واحد ، الإعلام الفلسطيني الموحد (فلسطين الثورة) بيروت ١٩٧٨م

٢٤ـ سالم جبران : قصائد ليست محددة الإقامة ، دار الآداب ، بيروت ، (بدون)